قراءات ومراجعات

موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية

تأليف د. عبد الوهاب المسيري

سعيد شبار*

صدرت عن دار الشروق بالقاهرة حديثاً موسوعة "اليهود واليهودية والصهيونية" التي تعد أول إنجاز علمي في موضوعه وأضخمه وقد كان صاحبها الدكتور عبد الوهاب المسيري، يبشر بها منذ بضعة أعوام، وخاصة أثناء زيارته الأولى للمغرب في 1993، و1995 حيث سلمنا بطاقات تعريفية بها وبمحتوياتها، ومنذ ذلك الحين وكثير من المهتمين وطلاب العلم ينتظرون هذا الإنجاز الأول من نوعه بفارغ الصبر.. حتى إذا برز إلى الوجود بعد مخاض عسير فوجئنا من جهة بثمنه الفاحش الذي بالغت بعض المكتبات في رفعه لدرجة استاء منها الكاتب نفسه. ومن جهة بالصمت الذي حفها من قبل مراكز البحث والدراسة ومنتدياته وجمعياته.. على ربوع الوطن العربي والإسلامي، إذا ما استثنينا بعض الالتفاتات القليلة والمحتشمة، بما في ذلك هيئات ذات توجه قومي "معادٍ" للاستيطان اليهودي ومشروع الصهينة والتطبيع. أما تلك، ذات الولاء الكامل أو الناقص، فقد نزلت عليها الموسوعة منزل الصاعقة، فلا هي قادرة على نقدها النقد العلمي المحكم، ولا هي قادرة على التنويه أو التعريف بها. خاصة وأن الموسوعة، باعتبارها موسوعة تأسيسية، في نقدها للفلسفة العلمانية الامبريالية الشاملة الأم الحاضنة للصهيونية، قد نَحَتَتْ نماذجها التفسيرية نَحتاً، وبنت نماذجها التحليلية بناءً، وولّدت مصطلحاتها ومفاهيمها توليداً، عبر رحلة من العناء في السبر والتقسيم والاستقراء والتقصي طويلة.

ولكل ما تقدم أسباب ومبررات وظروف أحاطت بالموسوعة منذ بدايتها إلى نهايتها. ونظراً لكون متعة القراءة فيها لا تكتمل إلا بمعرفة ذلك كله، أو بالأحرى ملخص وموجز عنه، فضلت أن أبدأ تعريفي هذا بالموسوعة بإطلالة تاريخية للتعرف أكثر وعن قرب على د. المسيري وعمله هذا، خاصة وأنه قدر لي أن أزور الكاتب في بيته بالقاهرة مرتين، وأن يزودني بمادة من مائة صفحة متعلقة بظروف وملابسات كتابة الموسوعة. وهذه المادة هي محور من مؤلف

* باحث من المغرب، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب، بني ملال.

ضخم يُعدّه الكاتب حول سيرته الذاتية، فضل أن يطلق عليه اسم "سيرة غير ذاتية غير موضوعية".[1] ولما سألته عن دلالة هذا العنوان، قال إنه –كعادته– يريد أن يقدم نموذجاً جديداً في كتابة السِّيَر "تترجم" للمعرفة وللعلم وتتحيز لهما أكثر مما تترجم للذات وتتحيز لها، وطالب العلم محتاج في تكوينه إلى النموذج الأول أكثر من الثاني. الدافع الآخر وراء كتابة هذا "المدخل" التاريخي، كون الكاتب لم يضمّن تقديمة للموسوعة شيئاً عنه، وفضل أن يكون ضمن محاور سيرته إلى جانب الهموم والمشكلات المعرفية الأخرى، وكي لا يكرر نفسه طبعاً.

أولاً: إطلالة تاريخية حول الموسوعة

لا يخفى أن الدكتور المسيري هو أحد البحّاثة العصاميين القلائل الذين نذروا أنفسهم للبحث العلمي، وقد كان تخصصه في الأدب الإنجليزي والأمريكي المقارن بالولايات المتحدة. وعمل خبيراً في الصهيونية بمركز الدراسات الاستراتيجية، وكان مستشاراً للوفد الدائم بالجامعة العربية لدى هيئة الأمم المتحدة.. وكان من ثمرات اهتمامه المبكر باليهودية والصهيونية مجموعة كتب منها:

- "الأيديولوجية الصهيونية: دراسة بنية الفكر الصهيوني"
- "نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني"
- "أرض الوعد"
- "من هو اليهودي"
- "اليد الخفية"
- "الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ"

[1] صدر الكتاب عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر عام 2001 بعنوان رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر: سيرة غير ذاتية وغير موضوعية في 560 صفحة. (التحرير).

هذا بالإضافة إلى أعماله الموسوعية الأخرى في نقد الحضارة العلمانية الإمبريالية الغربية وتحيزاتها، وخصوصاً العمل الموسوعي المشترك الذي ساهم في إنجازه أكثر من خمسين باحثا: "إشكالية التحيز"[2] الذي أشرف على تحريره والتقديم له. والعمل الموسوعي الذي يَعدُ بإصداره في ثلاثة أو أربعة مجلدات حول العلمانية تحت عنوان "موسوعة العلمانية الشاملة"، ولعله بديل العنوان الأول الذي كان يذكره الكاتب أي: "مقدمة لتفكيك الخطاب العلماني.. نموذج تفسيري وتصنيفي جديد". وكذلك كتابه القيّم "الفردوس الأرضي.. دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة" ومقالاته المختلفة في العديد من المجلات كـ "منبر الشرق" و"إسلامية المعرفة" و"الإنسان" وغيرها.[3]

بدأت دراسات الكاتب حول اليهودية والصهيونية منذ سنة 1965، وبدأت تتبلور عنده فكرة كتابة موسوعة عن اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل سنة 1970، حين بدأ كتابه "نهاية التاريخ"، حيث وجد نفسه مضطراً لتعريف كثير من المصطلحات والأعلام. كانت الفكرة الأولى في وضع مسرد توضيحي ملحق، ثم تحول تدريجيا إلى كتيّب معجمي مستقل ثم إلى معجم صغير ثم إلى معجم كبير ثم إلى موسوعة صغيرة من جزء واحد سنة 1975 تحت عنوان "موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية"، وهي موسوعة تعريفية بالأعلام والمصطلحات أغناها الكاتب بتعليقات وتوضيحات وتتبعات حسب العنوان التكميلي "رؤية نقدية". لكن طموح الكاتب المعرفي ونظره لم يتوقف عند هذا الحد، حيث بدأ التفكير في تحويل موسوعة 1975 إلى مشروع موسوعة تفكيكية شاملة، أي موسوعة تحاول تفكيك المصطلحات وتهدف إلى توضيح المفاهيم الكامنة وراءها بدلاً من تلخيصها وتعريفها فحسب. فكتب اقتراحاً بالمشروع إلى مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام، حيث رُفض الاقتراح بحجة أنه لا توجد كوادر كافية لكتابة الموسوعة، واقترح الكاتب أن تكون الموسوعة وسيلة توليد هذه الكوادر وتدريبها، لكن محاولاته باءت بالفشل ليجد نفسه مضطراً في النهاية إلى خوض معركة تمويل ذاتي للموسوعة، والتحرك الفردي من أجل خلق مجموعات البحث المساعدة. تحملت أسرة الكاتب تبعات تمويل الموسوعة، بل أسهم في تمويلها أحياناً بعض الطلبة أبناء الميسورين. واستطاع الكاتب أن ينظم فريقاً من المساعدين المشتغلين بالطباعة والتحرير

---

[2] صدرت الطبعة الأولى عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي مكتب القاهرة عام 1993 وعن إدارة المعهد في الولايات المتحدة في مجلدين عام 1995 ثم عن مكتب القاهرة في سبعة مجلدات. (التحرير)

[3] تقدم لي حوار مطول مع الكاتب شامل لمختلف الجوانب الفكرية والمعرفية التي يهتم بها. انظر الأعداد: 153-152-151 من جريدة الراية.. 1995.

وآخرين من الباحثين المكلفين بكتابة بعض المداخل والمباحث، وإن كان الكاتب قد وجد متنفساً فيمن فهم مشروعه وأخذ يساعده فيه، فإنه عانى كثيراً من أشكال المضايقة والابتزاز من آخرين لم يكن لهم من غرض سوى المال.

تعرض الكاتب في هذه المرحلة من البحث، أي بعد صدور موسوعة 75 وبداية الإعداد للموسوعة الشاملة، وقد كان مقيماً بالولايات المتحدة بالمدينة الجامعية في نيوجرسي إلى سرقة طالت كل متاع البيت وخاصة المكتبة ومسودات الكتب والمقالات.. حيث نقل ذلك أثناء غيابه على مرأى ومسمع قوات أمن الجامعة. ولما رفع دعوى بالموضوع لم يحدث شيء، والغرض من السرقة كما يقول: "هو الإرهاب النفسي وإفقاد التوازن، وقد نجحت هذه الجريمة في تحقيق غرضها لكن بعض الوقت وحسب". حيث استأنف نشاطه بالاشتغال في الموسوعة التي كانت تتأسس باستمرار، أي أنها كانت منفتحة لاستيعاب كل جديد وتوظيفه لدرجة لم يعد ممكناً معها التحكم في زمن إنهائها، لا سنة 1984 كما كان مقترحاً، ولا سنة 1994 كما كان المرجو، وإنما بعد ربع قرن من الزمن، مما جعل الموسوعة جزءاً من الحياة الخاصة للكاتب وأسرته، حيث نشأ وتربى معها جيل من أبنائه وأقاربه، وجعلته ينهج نظاماً جديداً في حياته أهمل فيه كثير من التفاصيل والجزئيات إذ كان العمل يستغرق اليوم كله تقريباً. بل تبلور هذا عنده إلى قناعة تقديم استقالته من الجامعة لمدة عشر سنوات ليحصل على تفرغ كامل في تجربة كان ينعت فيها بـ "الهوس"، أو كما يسميها هو "تجربة جنونية".

في سنة 1985 اقتضت الموسوعة من الكاتب أن يتوقف توقفاً طويلاً لاستجماع معلومات إضافية، حيث وقف على كون الغالبية الساحقة من يهود العالم الغربي مع نهاية القرن الثامن عشر كانوا يوجدون ببولندا، ثم اقتسمتهم روسيا وألمانيا والنمسا باقتسام بولندا ذاتها. ومن صفوفهم خرجت الآلاف والملايين التي هاجرت إلى إنجلترا واستراليا وكندا والولايات المتحدة وجنوب أفريقيا.. ثم فلسطين. الأمر الذي يجعل الحديث عن يهود العالم الغربي (أي معظم يهود العالم حديثاً في واقع الأمر عن يهود بولندا. ولا بد للمتخصص أن يكون على إلمام كبير بمحيط الجماعة اليهودية الحضاري في هذه المنطقة، أي تاريخ بولندا وتشكيلها الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي. وهنا كانت رحلة أخرى للكاتب اكتشف فيها –كما يقول– "جهلة التام بعالم فريد" استغرق زمنا آخر من عمر الموسوعة. خاصة وأنه التزم منهجيا وفي إطار النماذج المؤسسة للموسوعة –كما سنوضح لاحقاً– تجاوز التعريف القائم على الجمع والتعميم بالنسبة لـ "اليهود" أو "الشعب اليهودي" أو "العقيدة اليهودية" أو "التاريخ اليهودي"..، إذ ليس هنا

لك شيء متجانس يمكن أن نطلق عليه هذه التسمية. لذا فهو يؤمن –من خلال ما توصل إليه من نتائج– بوجود "جماعات يهودية وظيفية" أكثر مما يؤمن بوجود يهود أو شعب يهودي متجانس؛ جماعات يهودية ليست نقطة البدء فيها بالضرورة التوراة والتلمود، لكن المحيط الحضاري الذي تعيش فيه هذه الجماعات والذي يؤثر في كثير من طقوسها الدينية وأنماطها الحضارية، مما يسمح بالتمييز بينها كجماعات لها وظائف وإن لم يؤد ذلك المحيط إلى تذويبها بالكامل حيث تبقى كثير من الصفات والخصائص الأخرى المشتركة. ويركز الكاتب بالخصوص على تأثير الفلسفة العلمانية الإمبريالية الغربية (المادية الواحدية) الشاملة وقدرتها على تحويل اليهود إلى جماعات فلسفية تخدمها، بل وتجعل معركته الحقيقية مع هذه الفلسفة التي يحدث لليهود في ظلها ما يحدث للناس أجمعين.

قبل أن يخوض الكاتب معركة أخرى مع النشر حيث أحجم كثير من الناشرين عن المغامرة إلى أن قبلت ذلك دار الشروق في شخص د. إبراهيم المعلم، رغم ما يحف هذا العمل من مخاطر، ودائما ولحساسية موضوعه في زمن الجري وراء التطبيع. خاض الكاتب حربا نفسية رهيبة مع جماعات يهودية متطرفة، وخاصة تلك التي كانت مع مائير كاهانا، زعيم جماعة كاخ الإرهابية الصهيونية، حيث أمطرته سيلاً من رسائل التهديد بالتصفية، ستة خطابات أرسلت إلى الكاتب وهو بالقاهرة، ثم ستة أخرى وهو بالسعودية، ورسائل أخرى كانت توجه إلى مدير الموسوعة الأول د. محمد هشام. لم يقم الكاتب في البداية بردود فعل، لكن بعد عودته مباشرة إلى القاهرة تلقى الخطاب رقم 13، وفيه: "نعلم بوصلك وقد أعددنا لك قبراً"، مما جعله يدرك أنه متابع بدقة، وأن خطواته مرصودة، فاتصل بسلطات الأمن المصرية التي وضعت حارسين على باب منزله. ومن طرائف هذه الحدث أن جيران الكاتب وأقاربه ممن ليس لهم إلمام بالموضوع ظنوا أنه عُيّن وزيراً وبدأت التهاني تنهال على زوجته. حاول الصهاينة أيضاً أن يسيئوا إلى سمعته بإشاعة أنه سيذهب إلى إسرائيل على رأس وفد ثقافي، وأن الملحق الثقافي الإسرائيلي يستأجر شقة في عمارة الكاتب.. إلخ.

استطاع الكاتب على كل حال أن ينجو من الدسائس وأن يتحمل التبعات وأن يخرج من رحم هذه المعاناة موسوعته إلى الوجود، وقد كان حريصاً على نسخ كل جزء من العمل في نسختين. واحدة يدفعها للتحرير وأخرى يحتفظ بها في مكان ما. ثم يوزع عدة أقراص على معارفه وأصدقائه داخل مصر وخارجها ويعلن ذلك حتى يعلم الجميع أن الموسوعة أصبحت عملاً مستقلاً عنه كمؤلف، وأن مصادرتها من بيته أو مصادرة الكاتب نفسه لا تغني شيئاً عن في حجب الموسوعة من الصدور. بل وحتى بعد صدورها لحقته لعنات اليهود والصهاينة وتأليبهم للدولة

ضدها، فقد وصفها بعض الحاخامات بأنها معادية للسامية، وفي "الجيروساليم بوست" قالوا: إن عداء الدولة المصرية تبدى في منح جائزة معرض الكتاب الدولي لعام 1999 لموسوعة معادية للسامية من ثماني مجلدات. هذا بالرغم من نفي الكاتب مراراً كون الموسوعة تحتوي أي عداء لليهود أو اليهودية، وأنها تجنبت تماماً عمليات القدح والتشهير، والتزمت منهجاً علمياً في تفسير الظاهرة من مختلف جوانبها.

في سياق الاحتفاء الباهت بالموسوعة، وفي خطوة جريئة ومشكورة كسرت صفوف الصمت، نظّمت بجامعة القاهرة –مؤخراً– كل من كليتي الاقتصاد والإعلام ندوة علمية بهذا الصدد خصصت لمناقشة أجزاء الموسوعة شاركت فيها مجموعة من الأسماء الفكرية (حوالي 30 باحثا) من مختلف المشارب، مثل: محمود أمين العالم، عصمت عبد المجيد، محمد سيد أحمد، عبد القادر ياسين، علي جمعة، سيف الدين عبد الفتاح، محمد صبيح وغيرهم. وقد قدّر لي أن أحضر مع الكاتب يوما من يومي أعمال الندوة، حيث كان بإمكان كل مشارك أن يلاحظ إرادة التهميش والتهوين من هذا العمل من جانب الأمن خصوصاً. فإذا كان من تقاليد الجامعة هناك الحراسة الأمنية المشددة، فقد كان لموضوع الموسوعة من الحساسية ما جعل له إجراءات أمنية إضافية إذ استنفر الأمن الجامعي كل جنده للترقب والترصد وبلغ بهم الأمر أن طالبو المشاركين إبراز جوازات سفرهم قبل الدخول، واضطر المسيري نفسه أن يفاوض لمدة ربع ساعة حتى يتمكنوا من الدخول جميعاً. كما منع الكثير من الحضور وخاصة من لم يحمل بطاقة دعوة. وبالرغم من ذلك غصّت قاعة المؤتمرات بكلية الإعلام بمن حضر. كما لوحظ على ندوة من هذا الحجم لعمل بهذا الحجم الغياب التام للتغطية الإعلامية التي غالباً ما تتهاطل على أبسط إن لم يكن على أتفه الأعمال. وقد ذكر المسؤول الإعلامي للندوة أنه وجه الدعوة إلى كثير من وسائل الإعلام وبعض القنوات وعد أغلبها بالحضور واعتذر البعض الآخر، لكن كان من وعد كمن اعتذر. وقال إن بعض الصحفيين حضروا لكنهم منعوا من الدخول. فمرّت الندوة –كما أريد لها– في صمت وتعتيم إعلامي رهيب. لكن فات هؤلاء أن ما تفجر في الداخل طوال يومين من مناقشات وتعقيبات كان يرد بها د. المسيري على السائلين والمنتقدين، هو الناقل الحقيقي للمعرفة التي حبلت بها الموسوعة، حيث كان هناك شبه إجماع على أنها تيار فكري جديد في نماذجه ومناهجه وطرق تحليله ومقاربته لدرجة جعلت مفكراً معروفا مثل محمود أمين العالم يعتبرها أول وأضخم مشروع علمي تطبيقي فريد من نوعه يؤسس لإسلامية المعرفة، على مخالفته له.

إن الموسوعة كما يقول صاحبها –بالإضافة إلى موضوعها– هي دعوة، بكل ما ابتكرته واجتهدت فيه، "إلى إعادة التفكير في طرق التفكير حتى نحسن من أدائنا التنظيري والتفسيري الذي يجعلنا ندرك الواقع بشكل أكثر تركيبا دون الاستنامة للمقولات الاختزالية العامة الجاهزة". يؤكد هذا أكثر أن الجانب التنظيري المعرفي في الموسوعة كان يشكل نصفها، أي أربعة مجلدات من أصل ثمانية. الأمر الذي اضطر الكاتب إلى اختزال الأربعة في واحد إذ لا يعقل منهجياً أن تكون موسوعة من ثمانية مجلدات تشغل مقدماتها التنظرية أربعة منها.

لذا فهو يعتبرها موسوعة معرفية تأسيسية بالقصد الأول، وما ورد فيها عن "اليهود واليهودية والصهيونية" هو تكييف وتطبيق عملي للنماذج والمناهج المستخدمة. ولو كان الغرض أن تكون تعريفية (تجميعية)، لكان –كما يقول– حجمها ضعف الحجم الحالي، ولكانت المدة التي استغرقتها نصف المدة الزمنية الحالية.

يمكن القول في ختام هذه الإطلالة على لسان الكاتب "بأن الموسوعة ككل هي موسوعة كتبها مؤلف يشعر أن الحداثة الغربية التي تدور في إطار العقلانية واللاعقلانية المادية والعلمانية الشاملة، قد أدخلت الجنس البشري بأسره في طريق مسدود.. وهي تطرح أسئلة معرفية (كلية ونهائية): ماذا يحدث للإنسان في عالم بدون إله؟ وماذا يحدث للإنسان في عالم نسبي لا توجد فيه ثوابت ولا منطلقات ولا قيم عالمية؟ وماذا يحدث للإنسان في عالم توجد فيه حقائق بلا حقيقة ولا حق؟ وما هو مصير الإنسان في عالم انفصل فيه العلم عن القيمة وعن الغاية الإنسانية؟ واليهودي الذي تم تهجيره إلى إسرائيل تحت مظلة الإمبريالية الغربية وتم تحويله إلى شخصية داروينية شرسة حتى يتسنى توظيفه في خدمتها، والذي تمت إبادته في إلمانيا النازية بطريقة منهجية وتم دمجه في الحضارة الاستهلاكية حتى لم يبق من ماضيه وهويته سوى القشور، وتم قمعه وترشيده من الداخل والخارج، أليس هذا اليهودي مثلاً صارخاً لما يحدث للإنسان في عصر الحداثة والعقلانية واللاعقلانية المادية؟ ومن هنا فإن الموسوعة تطالب بالبحث عن حداثة جديدة لا تنتهي إلى موت الإنسان والطبيعة بعد أن أعلنت بصلف وخيلاء عن موت الإله"، كما أنها تحاول فيما تعرض له أن تقدم إجابات عن الأسئلة المحيرة السالفة.

ثانياً: النماذج التفسيرية الأساسية التي قامت عليها الموسوعة

قامت الموسوعة بتطوير ثلاثة نماذج أساسة تفسيرية، "حيث تم اختبارها عن طريق تطبيقه على حالة محددة هي الجماعات اليهودية في العالم منذ ظهورها على مسرح التاريخ حتى الوقت الحاضر". وهذه النماذج هي "العلمانية

الإمبريالية الشاملة"، "الحلولية الكمونية الواحدية"، "الجماعات الوظيفية". والنماذج المذكورة، كما يقول الكاتب "ليست على درجة من العموم أو الخصوص متطرفة أو "متأيقنة"، فهي على مستوى معقول بينهما، يسعى إلى وضع اليهود واليهودية والصهيونية باعتبارهم حالة محددة وخاصة في سياق إنساني عالمي مقارن، أي أن الحالة المحددة ليست شيئاً مطلقاً وأنها تنتمي إلى نمط إنساني عام ومجرد. ومع ذلك يحاول النموذج التحليلي أن لا يهمل الملامح الفريدة والمنحى الخاص للظواهر اليهودية والصهيونية. وسنحاول الآن أن نعرف وباقتضاب كبير النماذج المذكورة معتمدين بدرجة أولى على أقوال الكاتب نفسه مع بعض التوضيحات.

أ: الرؤية العلمانية الإمبريالية الشاملة: وهي تعكس تاريخ الحضارة الغربية الحديثة منذ عصر النهضة، "تاريخ التحديث والتغريب والعلمنة الجزئية والشاملة، والمشكلات المرتبطة بظهور الدولة العلمانية القومية المركزية.. والإمبريالية الشاملة"، وهو نموذج أكثر اتساعاً من نموذج "الجماعات الوظيفية" وأكثر عمومية، إذ لا يضع اليهود في سياق الأقليات وحسب، وإنما في سياق التشكيل الحضاري الإمبريالي الغربي، وهو التشكيل الذي هيمن على العالم بأسره وضمنه أعضاء الجماعات اليهودية". ويركز الكاتب هنا أساساً على المرجعية الفلسفية الغربية التي أسست لأشكال الواحدية المادية وخاصة الاتجاهات الفكرية الاستنارية كالداروينية والفرودية والماركسية والنيتشوية والوجودية والوضعية وغيرها، والتي توجت بهيمنة العلمانية الإمبريالية الشاملة وتوجيهها للقطاعات كافة بما فيها تلك الأكثر التصاقا بحميمية وكينونة الإنسان النفسية والروحية التي خضعت بدورها لمنطق العد والكم والمنفعة. وقد طبق الكاتب النموذج المذكور على اليهود باعتباهم حالة محددة" أقلية إثنية دينية تعيش في عصر العلمانية الشاملة.

وهنا يظهر اليهودي باعتباره الإنسان الغربي الحديث، وما يحدث له (من اندماج ودمج وتدجين وتوظيف وتنميط وعلمنة وإبادة) هو ما يحدث للملايين من البشر في العصر الحديث".

يخوض الكاتب حرباً ضارية، داخل الموسوعة وخارجها، مع أشكال العلمنة المختلفة في الغرب. العلمنة التي استطاعت أن تؤطر وتوجه الرؤية والذوق والسلوك الفردي والجماعي، فيما يعبر عنه بـ "العلمانية الجزئية" و"العلمانية الشاملة". العلمنة القائمة على أساس تحييد العلم، بحيث يصبح مادة محضاً لا تحوي غرضاً ولا غاية ولا هدفاً ولا معنى.. بما في ذلك غاية وجود الإنسان وفلسفته في الحياة، بحيث يعتبر جزءاً مندمجا في النظام أو السيرورة الطبيعية. وهو ما يعبر عنه النموذج العلماني بـ "الإنسان الطبيعي" أو "الإنسان ذو البعد الواحد". والأخطر من ذلك هو المنحى

التعميمي العولمي أو الشمولي الكلياني لهذه العلمنة، من حيث إرادتها التوسع على حساب القيم والخصوصيات الثقافية الأخرى. ويتحول الصراع -في العمق- إلى صراع بين نظم معرفية "مادية واحدية" لا تؤمن بمركز متجاوز أو مطلق، ونظم معرفية تؤمن بوجود المرجعية المتجاوزة في إطار "ثنائيات فضفاضة" كما يقول الكاتب، والمراد ثنائيات مستوعبة كثنائيات (الدنيا/الآخرة)، (الخير/الشر)، (الطبيعة/ما وراء الطبيعة)، (الإنسان/المادة).. إلخ.

العلمنة التي استطاعت أن تقوم أيضاً بتكييف العمل العقلي، حيث انقسم حسب عبارة الكاتب المنقولة عن علماء ومفكري الغرب أنفسهم، إلى "عقل أداتي" قائم على أداء وظيفة الاستجابة لنداءات الطبيعة وتبريرها وتقنينها، بما في ذلك نداء الحرب والعنف والإبادة والعدوان.. والتجريد من القيم النفسية والروحية التي لا يمكن تفسيرها حسب عقل مبرمج "طبيعيا" ووظيفياً على الأداء، وإلى "عقل نقدي" يحاول توسيع دائرة المرجعية وفهم ظاهرة الإنسان في أبعادها الاجتماعية والتاريخية، متجاوزاً في ذلك منطق "الأداء" إلى الإبداع والابتكار من داخل الكينونة الإنسانية كذلك.

لهذا كله، فالكاتب عندما يفسر الإبادة النازية ليهود أوروبا يضعها "في السياق العام للحضارة الغربية باعتبارها حضارة تمجد القوة وتجعل مصلحتها معياراً وحيداً أوحداً للحكم على الظواهر، باعتبارها حضارة إمبريالية عنصرية تتمركز حول نفسها ولا ترى الآخر إلا باعتباره مادة تستخدم". وعنده أنه "كما تحدث هتلر عن أوروبا الشرقية باعتبارها أرضاً عذراء أو صحراء مهجورة، تحدث الصهاينة عن شعب بلا أرض وأرض بلا شعب". والإبادة النازية طالت العجزة والأطفال والمعوقين والشيوعيين وأسرى الحرب وأحياناً الجرحى الألمان كما طالت اليهود، أي أن هؤلاء "جزء من موقف نازي عام ضد من يقف ضدهم". المنطق الذي وجه أوروبا الاستعمارية وهي تستعبد وتبيد الملايين من الأفارقة والهنود. وهذا التداخل هو ما عبر عنه أحد المعلقين بقوله "إذا كان هرتزل هو ماركس الصهيونية (أي منظرها)، فإن هتلر هو لينينها (أي هو حولها إلى واقع سياسي)".

ب: الحلولية الكمونية الواحدية: وهي رؤية للواقع ترى أن الإله قد حل في العالم وتوحد معه حتى أصبح غير متجاوز له، ومن ثم أصبح الإله والإنسان والطبيعة شيئاً واحدا، وتم إلغاء ثنائيات: الخالق والمخلوق، الإنسان والطبيعة، الكل والجزء، العام والخاص، لتظهر الواحدية الكونية المادية، واحدية تؤمن بذاتها أي بما هو كامن فيها ولا تؤمن بشيء خارج عنها متجاوز لها. والكاتب يجعل هذا النموذج في مقابل نموذج "التوحيد والتجاوز"، ويصف

العقائد الوثنية بأنها "محاولة إنزال الآلهة من السماء إلى الأرض (وإدخالها في نطاق المرجعية المادية الكامنة)، بحيث تخضع لقوانين الأرض الطبيعية المادية. ومن ثم يخضع الإنسان هو الآخر لهذه القوانين، إذ كيف يمكنه تجاوزها إذا كانت الآلهة ذاتها خاضعة لها، مستوعبة تماماً في الواحدية المادية الكونية. والنزعة الوثنية لا تختلف في هذا عن النزعة العلمانية المادية الطبيعية التي ترجع كل شيء إلى الطبيعة/المادة، وتنكر أي إمكانية للتجاوز الإنساني. أما الديانات التوحيدية فهي نوع من محاولة الصعود بالإنسان إلى الإله في السماء (وإدخاله في نطاق المرجعية المتجاوزة). فالإنسان بما فيه من رغبة التجاوز له قانون خاص ووجود مستقل عن المادة وعن الطبيعة".

ومن خلال هذا النموذج أرّخ الكاتب للعقيدة اليهودية ولتصاعد معدلات الحلولية الكمونية فيها، إلى أن سيطرت القبّالاه عليها. أي الاتجاه الصوفي اليهودي الوريائي خصوصاً، نسبة إلى إسحق لوريا. ونموذج "الحلولية الكمونية الواحدية" مكمل ومتداخل مع النموذج الأول، فيمكن القول بأن "العلمانية الشاملة هي وحدة الوجود المادية التي لا تختلف عن وحدة الوجود الروحية إلا في تسمية المبدأ الواحد الكامن. فبينما يسمى هذا المبدأ الوجود "الإله" في وحدة الوجود الروحية، فهو يسمى "الطبيعة/المادة" في وحدة الوجود المادية".

ج: الجماعات الوطنية: نموذج استحدثه الكاتب لدراسة الجماعات اليهودية في العالم الغربي، وكذلك وضع الأقليات المماثلة في الحضارات الأخرى. أي أن "دراسة الحالة هنا أخذت شكل دراسة أعضاء الجماعات اليهودية في إطار علم اجتماع الأقليات والجماعات التاريخية الهامشية والجماعات الإثنية. وما يحدث لليهودي يحدث لكل أعضاء الأقليات و(الجماعات الوطنية) الأخرى، أي أن اليهودي يظهر باعتباره الإنسان عضو الأقلية الدينية أو الإثنية أو الوظيفية".

ثم إن الجماعة الوظيفية تحدد "لا في إطار إنسانيتها المتكاملة، وإنما في إطار الوظيفة التي تقوم بها، واليهود كجماعات وظيفية في الغرب بحكم وظيفتهم دخلوا في علاقة تعاقدية نفعية مع الحضارة الغربية". الجماعة الوظيفية أيضاً " جماعة يستجلبها المجتمع من خارجه أو يجندها من داخله (من بين الأقليات الإثنية والدينية أو حتى بعض القرى والعائلات) ويوكل لها وظائف شتى لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع الاضطلاع بها. قد تكون هذه الوظائف مشينة (البغاء، الربا، الرقص، التمثيل أحياناً..)، وقد تتطلب جرأة خاصة (الطب، الترجمة، الأمن، الحرب..)، ويتسم أعضاء الجماعة الوطنية بأن علاقتهم بالمجتمع علاقة نفعية تعاقدية، إذ ينظر إليهم باعتبارهم وسيلة لا غاية، دوراً يلعب

أو وظيفة تؤدَّى. وهم يعرّفون في ضوء الوظيفة التي يطلعون بها لا في ضوء إنسانيتهم المكتملة. وأعضاء الجماعة الوظيفية عادة ما يكونون عناصر حركية لا ارتباط لها ولا انتماء. تعيش على هامش المجتمع ويقوم المجتمع في الوقت نفسه بعزلهم عنه ليحتفظ بمتانة نسيجه المجتمعي، ولذا فهم يعيشون في "جيتو" خاص بهم في حالة اغتراب".

وبخصوص مقدرة هذا النموذج التفسيرية حينما يطبق على الجماعات اليهودية. يذكر الكاتب أنه:

– يضع أعضاء الجماعات الوظيفية اليهودية في سياقاتهم التاريخية والإنسانية المختلفة ويتيح مقارنتهم بأعضاء الأقليات الدينية والإثنية المختلفة.

– أنه يمكننا من اكتشاف استمرارية تاريخية متعينة في تواريخ الجماعات اليهودية والقطاعات الوظيفية التي تشغلها.

– يكشف دولة إسرائيل باعتبارها دولة وظيفية تعاقدية مع الغرب، ودولة استيطانية قتالية تعمل للدفاع عن المصالح الاقتصادية والاستراتيجية للعالم الغربي. ولا يفوت الكاتب التشديد على دور الاستعمار في البحث عن العناصر المحلية ليستوعبها ويحولها إلى جماعات وظيفية ترتبط به ثقافياً وتدين له بالولاء وتدافع عن مصالحه. وهي التي يطلق عليها الكاتب تسمية "اليهودي الوظيفي"، وهو غير اليهودي، أي "مواطن وظيفي" يقوم بأعمال لحساب جهات خارجية مثل (بيع الوطن، أو خيانته، وإخضاع كل شيء للعرض والطلب، ونشر الإباحية والقيم الاستهلاكية،... إلخ، سواء كان هذا "المواطن الوظيفي" حاكماً أو مسؤولاً سياسياً أو مثقفاً أو رجل أعمال أو غيره.

ثالثاً: الجانب الاصطلاحي في الموسوعة وبدائلها المعرفية

إن الناظر في أعمال الدكتور المسيري تستوقفه بالضرورة منظومة اصطلاحية لها جاذبيتها ودلالاتها العميقة. بعضها منحوت وبعضها مستعمل، لكنها كلها موظفة توظيفاً منهجيا دقيقاً، ومستعملة استعمالات جديدة، الأمر الذي يجعلها أكثر قدرة على التعبير والتفسير، خاصة الضمائم المتقابلة والأزواج المركبة.. وحتى الألفاظ المفردة، مصطلحات من قبيل: (ذات/موضوع)، (طبيعة/إنسان)، (مادة/روح)، (علمنة/أنسنة)، (بسيط/مركب)، (تفكيك، تركيب)، (انغلاق، تمركز، تحيز/فضفاض، مطلق، متجاوز).. حوسلة تفسير، احتمالية، متتالية، سببية، نهائية، وظيفي، شمولي، معرفي، قلق، استنارة، ترشيد، عقلنة، كموني، حلولي، مرجعية، تصنيف، تفسير، اجتهاد... إلخ.

من خلال هذا المعجم المعرفي، التفكيكي التركيبي، ناقش د. المسيري وحلل قضايا وإشكاليات العلمنة والتغريب، والصهينة والتهويد وغيرها من موضوعات الموسوعة الحافلة. كما أن الكاتب ينطلق من كون كثير من المصطلحات نابعة من المركزية الغربية ومتحيزة لها بشكل كبير، ومن كون الصهاينة أنفسهم قد انطلقوا من المركزية الغربية وعمقوها بإضافة "المركزية الصهيونية" التي جوهرها أن اليهود كيان مستقل لا يمكن دراسته إلا من الداخل في إطار مرجعية يهودية خالصة أو شبه خالصة. وهذا ما أدى –حسب الكاتب دائما– إلى ظهور "جيتوية المصطلح" أي تمركزه وانغلاقه الداخلي واكتفاءه بذاته، وقد سقطت في شباك هذا التمركز الاصطلاحي كثير من الدراسات التي كتبت عن الموضوع اليهودي والصهيوني، بحيث اكتفت بتفسير الظاهرة من داخلها وبتوجيه من مصطلحاتها ومفاهيمها. كتلك التي تحدثت أو تتحدث عن "التاريخ اليهودي"، أو العبقرية اليهودية" أو "الجوهر اليهودي" أو "العقيدة اليهودية" أو "الجماعة اليهودية".. وهي مصطلحات ومفاهيم تفترض وجود تاريخ واحد وجوهر واحد وعبقرية ملازمة وجماعة واحدة وهوية واحدة وعقيدة واحدة.. كل ذلك باستقلال عن المؤثرات الخارجية التي لا يعدو اليهود، في كل تلك المجالات، أن يكونوا متأثرين ومنفعلين بها. وتفسير الظاهرة من خارجها وبتحرر من ضغط وتوجيه مفاهيمها، أي من خلال المحيط الغربي، يكشف عن وجود جماعات وهويات وعقائد وتواريخ... يهودية. لذا بدل الصيغ التقريرية البسيطة المفردة يتحدث الكاتب عن صيغ تحليلية تركيبية متعددة، عن "تواريخ الجماعات اليهودية" وعن "الهويات والعقائد اليهودية" وعن "الجريمة بين أعضاء الجماعات اليهودية".. وهكذا. فبدل الطابع التعميمي الشامل الذي لا يتعمق في دراسة الظاهرة ويكتفي بصيغ الإجمال المريحة، يتكلف الباحث مهام الغوص إلى أعماق التمايز التاريخي والمعرفي والإثني والعقائدي.. داخل الكيان اليهودي والصهيوني، ليكتشف أن عناصر الاختلاف وعدم التجانس هي أكثر من عناصر الوحدة والائتلاف.

ينبه الكاتب بهذا الصدد أيضاً على مقولات "التآمر اليهودي"، التي تتبناها الجهات المعادية لليهود بمن فيهم العرب. والتي بقيت أسيرة المنطق اليهودي نفسه في التفسير، أي "جيتوية المصطلح". كالحديث عن "الجريمة اليهودية" و"المؤامرة اليهودية".. باعتبارها إنجازاً يهودياً خالصاً.

ويتجلى تحيز الصهاينة الكامل للغتهم العبرية التي بعثوها من تحت الأنقاض وأحيوها بعد نعي التاريخ لها، في رفضهم ترجمة كثير من الألفاظ العبرية، وفي إصرارهم على إبرازها بمنطوقها العبري، كـ "الليكود، المعراخ، أحدوث،

هاعفداه، المتسفاه، يوم كيبور.."، وتنقل عنها المراجع العربية ذلك دون أدنى تصرف بالترجمة والتحويل، وتنتشر –كما يقول الكاتب– في الكتب والمقررات الدراسية لتعمق منطق التفرد والتميز والخصوصية اليهودية. ولتستوعب القارئ نفسياً وتضعه في حالة انهزام كامل أمامها وهو يحاول استكشاف مجاهيلها، ويخضع لرناتها الصوتية المختلفة. كما تظهر "جيتوية المصطلح" في ترجمة أسماء الأعلام، فالمصطلح الصهيوني نابع من الإيمان بأن اليهودية هي انتماء قومي ولذا يجب عبرنة كل الأسماء فيصبح إسحق هو "يتسحق"، وموسى هو "موشيه" وسعيد هو "سعديا".. يظهر هذا الانغلاق أيضاً في اصطلاحات مثل "الهولوكست، العالياه.."، وغيرها مما هو موجود في اللغة العربية. فـ"العالياه" مثلاً: "إصطلاح ديني يعني العلو والصعود إلى أرض الميعاد. ولا علاقة له بأية ظاهرة اجتماعية. ومع هذا استخدم الصهاينة الكلمة للإشارة للهجرة الاستيطانية. أي أن الظاهرة التي لها سبب ونتيجة أصبحت شيئاً فريداً وظاهرة ذاتية لا تخضع للتقنين والمناقشة". و"الهولكوست": "هو تقديم قربان للرب في الهيكل، يحرق كله ولا يبقى منه شيء للكهنة. ومع هذا يستخدم الصهاينة هذه الكلمة للإشارة إلى الإبادة النازية لليهود".

والغرض –يقول الكاتب– من استخدام كل هذه المصطلحات الدينية العبرية هو إزالة الحدود والفوارق بين الظواهر المختلفة، بحيث تصبح "عالياه" مثلاً هي "الهجرة اليهودية الاستيطانية"، أي أنها تحمل مضموناً جديداً ودلالة وظيفية جديدة. فالهجرة الصهيونية هي العلو والصعود إلى أرض الميعاد. أما الهجرة منها فهي "يريداه"، أي هبوط ونكوص وردّة. ويصل التمركز الاصطلاحي قمته في رفض بعض المراجع استخدام فلسطين، ذات الدلالة على رقعة من الأرض عربية.

ومثل الكاتب لذلك بمرجع صهيوني "علمي" يتحدث صاحبه عن المسرح العربي في فلسطين في الثلاثنيات، حيث يطلق عليه تسمية: "المسرح العربي في ارتس يسرائيل".

وفي محاولة لتجاوز هذه الصعوبات، وللوصول إلى مصطلحات أكثر تركيباً وتفسيرية وشمولاً ودقة، نحت الكاتب مصطلحات تنبع من نموذج تحليلي جديد لا يتبنى المرجعية الغربية أو الصهيونية، بل يستند إلى إدراك عربي إسلامي للظواهر وإلى مرجعية عربية إسلامية، تؤمن باستقلال الإنسان عن الطبيعة، وبإمكان تفسيره من الداخل والخارج. لذا فهو يتحدث بدلاً عن "الإنسان الطبيعي أو المادي" عن "الإنسان الرباني" أو "الإنسان الإنسان"، وبدلاً عن "المرجعية المادية الواحدية" عن "المرجعية الروحية المتجاوزة"... هذا بالإضافة إلى ما تمت الإشارة إليه من مفاهيم

ومصطلحات، حيث تم توظيفها توظيفات مختلفة في إطار مرجعي جديد ونموذج تفسيري جديد. وبتعبير أوضح، حيث تم فتحها بإزالة أقفال العلمانية الشاملة والصهيونية الوظيفية عنها، لتكون أكثر قدرة على التفسير والدلالة.

يبتدئ الكاتب عمله التأسيسي هذا بانتقاد منهجية التفكير في العقل العربي، ومنطق تعامله مع القضايا، حيث تهيمن عليه من جهة –حسب الكاتب– "عقلية نصوصية" ومن جهة أخرى "نظرة تآمرية" اختزالية. فالعقل العربي "أصبح يميل هو الآخر إلى أن ينزع اليهود من سياقهم التاريخي والحضاري والإنساني المختلف المتنوع، ويشيّئهم ويجردهم تماماً من إنسانيتهم المتعينة". فيفترض أن ما ورد في الكتب المقدسة لليهود كان لأن يكون نموذجاً تفسيرياً لسلوكهم. ويرجع الكاتب قصور الخطاب التحليلي العربي إلى أسباب يجملها في "غياب النموذج التفسيري الاجتهادي المركب الذي لا يتبنى المسلمات القائمة ولا يستبعد أيا من عناصر الواقع بقدر الإمكان، ويسترجع الفاعل الإنساني ككيان مركب لا يمكن رده إلى عنصر مادي (أو روحي) واحد أو اثنين"، "لقد حان الوقت أن ندرسهم من وجهة نظرنا، وأن نخضع تحيزاتنا للاختبار المستمر لنرى مقدرتها التفسيرية بالمقارنة مع النماذج التحليلية الأخرى".

ثم إن "الخطاب التآمري" الذي ينسب لليهود كل خطيئة، صغيرة أو كبيرة، يؤدي بهذا العقل لا محالة إلى "طمس طبيعة العلاقة بين الإمبريالية الغربية، الأم الرؤوم للدولة الصهيونية، وبين هذا الطفل المدلل.. إلى "طمس الطبيعة الإبادية لهذه الإمبريالية التي قامت بإبادة الملايين في أمريكا الشمالية والجنوبية وأفريقيا وآسيا.. قبل أن يظهر اليهود على ساحة السياسة. كيف يمكن تفسير المذابح التي لا تزال في البوسنة والشيشان وكوسوفو؟ هل اليهود وراءها؟ وهل كانوا أيضاً وراء ضرب الولايات المتحدة لفيتنام حيث أتت على الأخضر واليابس؟" ثم يثير الكاتب استطراداً آخر مهماً هنا ينبه فيه على من يسميه بـ "اليهودي الوظيفي" أي المواطن غير اليهودي، لكنه يقوم بوظائف اليهود، يقول: "وإذا نظرنا لجبهتنا الداخلية، ألا يؤدي فكر المؤامرة هذا إلى عدم التنبه إلى ما نسميه "اليهودي الوظيفي"، أي غير اليهودي، لكن الذي يقوم بوظائف اليهود مثل بيع الوطن وخيانته وإخضاع كل شيء للعرض والطلب ونشر الإباحية.. إلخ. ألا تؤدي هذه الرؤية إلى إهمال الظواهر العامة وأسبابها ومن ثم إمكانية التصدي لها؟" ولا يخرج عن هذا السياق أيضاً انتقاء الكاتب لـ "أسطورة اللوبي الصهيوني الذي يسيطر على صنع القرار في الولايات المتحدة. وأن هاته ضحية مسكينة يتلاعب بها الصهاينة اليهود.. إذ يتناسى أصحاب هذا الخطاب كون الصهيونية ذاتها استثماراً استراتيجياً هاماً بالنسبة للولايات المتحدة. وأن هاته لا تدخر وسعاً في ضرب من يقف في طريقها. ولا

يدركون أن نجاح هرتزل لا يكمن في أنه جند اليهود، فمعظم أعضاء الجماعات اليهودية كانوا ضده. وإنما لأنه اكتشف الإمبريالية كآلية لتنفيذ المشروع الصهيوني. ولهذا توجه إلى الاستعماريين يطلب منهم النصح والعون. وطلب من ج تشامبرلين وزير المستعمرات البريطانية قطعة أرض لا يقطنها الإنسان الأبيض لتكون مكاناً لإنشاء الدولة الصهيونية. فلو كان للوبي الصهيوني هذا الوزن في صنع القرار لكان "وعد بلفور" من ألمانيا وليس من بريطانيا، لقوة الجماعة اليهودية هناك وضعفها هنا".

لا يفوت الكاتب هنا، تجنباً لأي لبس في الفهم والتأويل، أن يذكر بأن إنكار "منطق المؤامرة والتآمر" يعني إنكار وجود مخططات يهودية وصهيونية تحاول عشرات الأجهزة تنفيذها.. لكن المخطط يبقى "جزءاً من نمط يتكرر، له مسار يعبر عن منطق عام يمكن فهمه والتصدي له بمخطط مضاد. أما المؤامرة فهي خطة سرية توضع في الظلام، ليست جزءاً من نمط ولا قانون داخلي لها، والبحث عنها في وثيقة ما كالبحث عن السراب. فبدلاً من فهم الواقع وتحليله وتفكيكه وإعادة بنائه، تصبح مهمتنا هي ضرورة البحث عن هذه الوثائق وتبرير الهزائم".

في إحدى المحاضرات، صرخ أحد الحضور في وجه الكاتب –بعد أن عرض وجهة نظره هاته– قائلا بحماس شديد وبصوت عال: "إن حربنا مع اليهود إلى قيام الساعة" فعلا التصفيق القاعة. ولما هدأ الوضع قال لهم المحاضر: "إن قولكم هذا يعني أن قيام دولة إسرائيل جزء من مخطط إلهي، وأن انتصاراتها علينا "أمر مكتوب" علينا نقبله إلى أن تحين الساعة!". ويعتبر الكاتب أن ما يقوم به المفاوضون والمجاهدون خصوصاً، هو نوع من "أنسنة اليهود"، أي "تحويلهم إلى بشر لهم خصوصياتهم التاريخية، خاضعين لاعتبارات الزمان والمكان. هذا عكس بعض أعضاء النخب الحاكمة العربية، الذين يؤمنون في قرارة أنفسهم بأن اليهود قوة عظمى تمسك بمقاليد الأمور، وأنه لا بد من التفاهم معهم إذ لا قبل لنا بهم. وهو حل مريح طبعا وغير مكلف وآمن".

لتوضيح هذا المنحى أكثر –أي تحطيم صنمية اليهود– يُخضع الكاتب كثيراً من المصطلحات والمفاهيم المذكورة لمنهجية علم الاجتماع التاريخي والسياسي في سياق نقدي تتبعي دقيق، وفي إطار النماذج التفسيرية المتقدمة. فالحديث مثلاً عن "عبقرية يهودية" وعن "جريمة يهودية" باعتبارهما من خصائص الفكر اليهودي يجد فيه شططا وجهلاً كبيراً بالواقع التاريخي والاجتماعي لليهود، حيث يكتفي هذا الحديث بالنظر إلى اليهود من داخلهم ويعريهم عن محيطهم الحضاري. وحيث يؤكد الكاتب أن المحيط الحضاري هو الذي يصوغ ويشكل عناصر العبقرية أو الجريمة

لدى اليهود وغيرهم. فهو يتساءل مثلاً: إذا كانت يهودية اليهودي هي المسؤولة عن عبقريته، فلم لم يظهر كافكا أو أينشتاين بين يهود الفلاشا؟. وإذا كانت يهودية اليهودي هي المسؤولة عن إجرامه، فلم لم يظهر تنظيم مافيا يهودي في اليمن كما حدث في الثلاثينات في الولايات المتحدة؟. "فكثير من الظواهر والمؤسسات اليهودية التي نظن أنها يهودية خالصة ليست إلا صدى للظواهر السائدة في مجتمع الأغلبية وإعادة إنتاج لمؤسساته. فعبقرية أينشتاين ليست نتاج يهوديته وإنما هي نتاج التراكم المعرفي والتقدم العلمي الهائل في العالم الغربي الذي ينتمي إليه هذا العالم الرياضي، تماما كما أن تنظيم المافيا اليهودي إنما هو صدى لظاهرة الجريمة المنظمة التي يعرفها المجتمع الأمريكي".

ومن أجل مقاربة وتحليل مصطلحي "اليهود" و"اليهودية" و"الصهيونية" يستخدم الكاتب "النموذج الجيولوجي التراكمي"، باعتبار "أن العقائد والهويات والطقوس والأعياد تأخذ شكل تركيب جيولوجي مكون من طبقات مختلفة مستقلة ومتراكمة أو متجاورة، لكنها غير ملتحمة..". ويقسم يهود العالم من الناحية الدينية في الوقت الحاضر إلى قسمين:

يهود إثنيون: فقدوا كل علاقتهم بالعقيدة والموروث الديني.

يهود يؤمنون بصيغة ما من صيغ العقيدة وهم أقسام يهودية أرثوذكسية ويهودية إصلاحية ويهودية محافظة). وإن كان الأرثوذكس لا يشكلون إلا أقلية، نسبة 5% فإنهم مع ذلك يتحكمون في المؤسسة الدينية في إسرائيل.

ويركز الكاتب في تحديد مفهوم "اليهودي" على دور المحيط الحضاري في تشكيل وصياغة نمط حياته وحضارته، بل وأشكال اعتقاده وتصوره ونظرته إلى الكون، دون أن يفقد هذا اليهودي طبعاً كثيراً من خصوصياته المميزة. ويمثل الكاتب لذلك بإثنيات يهودية مختلفة (يهود الفلاشا ويهود أمريكا مثلاً).

أما بالنسبة لـ "الصهيونية" فالكاتب يرى أنها "لم تنبع من التراث اليهودي، وإنما اجتمعت من التراث العلماني... وأن تاريخ الحركة الصهيونية يبدأ مع الجماعات البروتستانتية المتطرفة التي كانت تنطلق بها إلى العلمانية". واستدل الكاتب بكتابات تظهر بأن اليهود كانوا يقاومون الدعوات الصهيونية، لكن لظروف معينة، من ضمنها تعثر تحديث اليهود في أوروبا وحدوث الانفجار السكاني، وظهور بعض القيادات التي تدعو إلى الهجرة إلى أي مكان... هنا تم تبني الفكرة الصهيونية التي كانت قد طرحت في الأوساط الاستعمارية والعلمانية الملحدة". ثم بعد ذلك "تهويد"

الصهيونية، أي إلباسها لباس الشرعية الدينية والتاريخية". فالصياغة صياغة علمانية في الأصل وهي: "العودة للاستيلاء على أرض فلسطين"، وعملية التهويد حولتها إلى عبارة: "العودة إلى أرض الميعاد". ويمكن للعملية أن تكون معكوسة في مواطن أخرى، أي صهينة كثير من المفردات اليهودية.

فالصهيونية إذن "على عكس ما يتصوره الكثيرون لا تنبع من التوراة وأرض كنعان والتلمود، وإنما يجب أن توضع في سياق سياسي وفكري. فهي بالدرجة الأولى ثمرة من ثمرات التشكيل الحضاري الغربي في (ق 19)، وهو الشكل الذي أفرز ظاهرتي الإمبريالية والعنصرية وكثيراً من الأنساق الفلسفية العدمية التي تنكر التاريخ، بل وتنكر فكرة القيمة نفسها وكل المطلقات والثوابت المعرفية والأخلاقية. فجوهر الفكر الغربي العلماني الشامل في (ق 19) هو البحث عن "مطلق مادي"، أي نقطة داخل المادة يمكن عن طريقها تفسير كل الأشياء والظواهر، هذه النقطة هي صراع الطبقات ووسائل الإنتاج عند ماركس، وهي الجنس عند فرويد، وهي مبدأ المنفعة عند بنتام... إلخ". ولهذا كانت الصهيونية غير اليهودية وبعيدة كل البعد عن مراجعها وأصولها الدينية والتاريخية، إلا ما تم تحويله لأغراض وظيفية نفعية واضحة.

أخيراً وليس آخراً، أعتقد أن ما تقدم بخصوص هذه الموسوعة ليس إلا شذرات ونتفا يسيرة حاولت ما أمكن تقريب هذا العمل من القارئ وترغيبه فيه، على مستوى مادته وموضوعه ونماذجه.. بل وحتى ظروفه وملابساته. يبقى أن أشير إشارة سريعة إلى موضوعات الموسوعة في أجزائها الثمانية، حيث خصص الكاتب لكل جزء محوراً.

الأول: "الإطار النظري"، وضح فيه الكاتب الإشكالات والمفردات والنماذج الأساسية..

الثاني: "الجماعات اليهودية إشكالات"، تحدث فيه عن طبيعة اليهود وجماعاتهم ووظيفيتهم وعداء الأغيار لهم..

الثالث: "الجماعات اليهودية، التحديث والثقافة"، تحدث فيه عن علاقة اليهودية بالعلمانية الإمبريالية وعن ثقافات الجماعة اليهودية لغة وأدباً وفناً وتربية وتعليما..

الرابع: "الجماعة اليهودية، تواريخ"، تحدث فيه عن تواريخ هذه الجماعات في العالم القديم وفي العالم الإسلامي وفي العالم الغربي (الحديث خصوصاً)..

الخامس: "اليهودية: المفاهيم والفرق"، عرض فيه العقائد الأساسية والفرق اليهودية قديماً وحديثاً..

السادس: "الصهيونية" وضح فيه إشكالات كثيرة كعلاقة الصهيونية بالغرب والعلمانية الشاملة، وتاريخ الصهيونية وأنواعها ومنظماتها وحركتها وعلاقتها بالجماعات اليهودية..

السابع: "إسرائيل المستوطن الصهيوني"، عرض فيه لإشكالية التطبيع والدولة الصهيونية الوظيفية، والاستيطانية الإحلالية، والعنصرية والإرهاب الصهيونيين، وأزمة الصهيونية..

الثامن: "ملاحق وفهارس"، عرف فيه بعض المفاهيم والمصطلحات، وضمنه ثبتاً تاريخياً (كرونولوجيا) لأهم الأحداث في تاريخ البشرية والتي تخص فلسطين والجماعات اليهودية، بالإضافة إلى الفهرس الموضوعي، وتعريف بصاحب الموسوعة والمشرف عليها، وفهارس ألفبائية عربية وإنجليزية.